مراجعات

ما فعله التقسيم في شبه قارة لم تلتئم بعد

"هذا ليس فجراً" للهندي ياشبال تقترب من الأعمال الكبرى

ترجمة/ أحمد فاضل

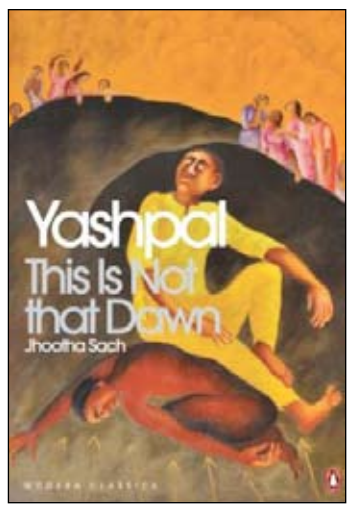

هذه رواية طويلة وكبيرة في معانيها لا يجد قارئها مهما كان لديه شعور بالقسوة إلا أن تدمع عيناه لهذا السرد الرائع الذي كسر فيه مؤلفه جدران المحدودية الفنية وتتبع بمئات الصفحات مشاهد المؤامرة خيطا خيطا وحرفا حرفا، واقترب من الروايات الكبرى التي حفل بها الأدب العالمي أمثال "البحث عن الزمن الضائع" لبروست و"ثلاثية القاهرة" لنجيب محفوظ و"مغني العائلة" لموسكات ، هذه الرواية بتسلسلها وتشعبها تذكرنا بطريقة الكاتب التركي العالمي أورهان باموك في روايته "متحف البراءة"

ويبدو تقريبا أن مثل هذه الروايات وإن تضاءل في بعض الأحيان مفهومها ، لكنها بطبيعة الحال تبدو على مستوى واحد، فالروايات العظيمة أمثالها تمثل شيئا أكثر من مجرد قصة لمأساة معينة لأن لها مسارا على خريطة حركة البشر والاتصال بهم على نطاق حياتهم ، وهذا ليس كل شيء، فحجم ذلك المسار يكون أحيانا بقيمة قليلة جدا إذا كنا لم نتخذ أيضا تجربة بعيدة وطويلة لفهم هذا العالم بدهاء وذكاء ومراقبة يحتاج لها في بعض الأحيان أن تخمر كالعجين.

كان الروائي الهندي ياشبال قد أصدر روايته الضخمة "هذا ليس فجرا" لأول مرة باللغة الهندية بمجلدين في العامين ١٩٥٨ و ١٩٦٠ وترجمت إلى اللغة الإنكليزية مؤخرا بأكثر من ١١٠٠ صفحة، لكنها ليست طويلة بشخصياتها كما يظن لأول وهلة وقد ركز مؤلفها على تقسيم الهند عام ١٩٤٧ إلى دولتين هما الهند والباكستان نتيجة للاستعمار الطويل الذي حكم شبه القارة الهندية وتسبب بتقسيمها مخلفا وراؤه حمامات من الدم وهجرة في اتجاهين مختلفين، فالهندوس راحوا يتدفقون إلى الشرق من الهند والمسلمين غربا إلى الباكستان يدفعهم في ذلك خوف كبير وشرخ في النفوس لقارة لم تلتئم تماما حيث ما زالت تشتعل بينهما حروب ما خمدت نارها حتى يومنا هذا .

تركز الرواية على شقيقين ينتميان إلى الطائفة الهندوسية يعيشان في حارة تدعى جاديف تتبع مدينة بوري تارا الواقعة ضمن حدود المدينة القديمة المسورة لاهور، أحدهما بوري وهو كاتب وصحافي شاب مثالي كان قد قضى حكما بالسجن لفترة محدودة بقضية تتعلق بإحدى الحركات المدافعة عن الحريات ، أما تارا شقيقته فهي طالبة جامعية متحمسة لفكرة الحرية الفكرية داخلها لكنها تعاني بذات الوقت من خطيبها الذي لا يقرها على ذلك ، ويبدو أن عائلتهما منزعجة من تلك الأفكار التي يحملانها خاصة وأن بوري لم يعثر على وظيفة منذ خروجه من السجن كي يفتح أمامه الطريق بالزواج من ابنة أحد الناشرين المعروفين، أما تارا فهي تأمل أن تتخلص من خطيبها الغليظ حتى تتمكن من ولوج هذا العالم بحرية أكبر، ولكن أحلامهما تضاءلت ببروز أزمة كبيرة بدت كسحابة سوداء فوق مدينتهم لاهور، حيث تتهيأ بريطانيا المستعمرة لمغادرة الهند والخوف من ظهور دولتين كانت في البداية مجرد نظريات على الورق سرعان ما أخذت تتحقق بظهور دولة باكستان المسلمة، فلم يكن أحد يتصور أن يكون التقسيم بهذا الشكل لمنطقتين متجاورتين جغرافيا وثقافيا تحولتا في نهاية المطاف إلى منازل متباعدة ومدن وأسر وراء الأسلاك ، والمفارقة التي يذكرها ياشبال في روايته هي إن أياً من الهندوس والإسلام أثبتا عجزهما عن وقف العنف الذي استشرى بينهما من قتل واغتصاب مراراً وتكراراً لأن هناك شخصيات معنوية تقف على خط واحد من القتال لتعقيد المسألة خاصة إثر اندلاع أعمال الشغب الدينية الشنيعة في ولاية كوجرات عام ٢٠٠٢، ومع ذلك فإن "هذا ليس فجرا" رواية ممتعة تكتسب أهميتها من تفاصيلها الغارقة في سلوكيات النفس البشرية خاصة في لاهور التي ينتمي لها أبطال الرواية.

بوري يترك لاهور للبحث عن وظيفة أما شقيقته تارا فتهرب مع رجل مسلم يتهم بعد ذلك باختطافها في ليلة زفافها، فالعنف والتقسيم جاءا ليمرا من فوق أجساد الهنود المتهالكين أصلا، لكنهما بالتالي يأخذان لكل منهما طريقين آخرين لحياتهما ، فبوري مع تبجحه بمثاليته وحبه للغته ورؤيته السياسية واجتهاده في كل ذلك نراه يغرق تدريجيا تحت سلطته الدنيوية الخاصة في جمهوريته الهندية الجديدة ، فنراه يحارب بكل ما يملك من قوة للمشاركة في المؤتمر الوطني الهندي والترشح في ما بعد لإحدى الوظائف المهمة ، بينما نجد تارا تقف عاجزة على ما يبدو من كل ما يحيطها فتقع ضحية وحشية مجتمعها الذكوري لكنها تتمرد على كل ذلك فتخط لحياتها مسارا مستقلا برحيلها الى العاصمة الهندية ، ومع أنها لا تملك ما ملكه شقيقها بوري من سلطة لكننا نراها تبحث لنفسها كما لغيرها من النساء عن مكان تحت الشمس لمقاومة أية محاولات للعودة الى عالم الإذعان وتأكيد حقها وحق غيرها في المعارضة الجماعية لكل أنواع الاستبداد.

بعد سنوات قليلة يبزغ فجر الدستور الهندي الذي يعرض رؤية جديدة للمسؤوليات وحقوق وحرية المواطنة لجميع الهنود وإنشاء نظام سياسي أكثر مساواة من أي نظام سابق عرفته الهند كما يعرض ياشبال كل ذلك حسب رؤيته لعهد جديد تدشنه الهند بعد التقسيم في سرد واقعي ملحمي بعد عشر سنوات من التقسيم، وهو بذلك يكون قد أنتج أول رواية عظيمة كما يقول تشودري تمثلت فيها المثل العليا لقيم عانت التقسيم بكل مرارة واختلطت فيها رؤيته لحلقات مادية ومثالية ما زالت حاضرة في شبه القارة الهندية التي عانت فجرا لا يشبه في كل الأحوال فجرا آخرا في مكان آخر .

وياشبال (١٩٠٣ - ١٩٧٦) كاتب روائي هندي معروف ترجمت أعماله الى لغات عديدة وتقلد العديد من الجوائز ومن أجل مبادئه وإيمانه الراسخ بالحرية فقد ألقي القبض عليه وعمره ٢٨ عاما وحكم بالسجن مدة ١٤ سنة مع الأشغال الشاقة وكرس حياته للكتابة بعد إطلاق سراحه، ومع احتفال الهند بالذكرى المئوية لميلاده فقد أقامت المؤسسات الثقافية هناك إعادة تقييم لأعماله على ضوء تغير القيم الاجتماعية والسياسية وترجمت روايته هذه إلى اللغة الإنكليزية مؤخرا وهي من الروايات الضخمة حيث بلغت صفحاتها أكثر من ١١٠٠ صفحة .

حرف علّة

■ عواد ناصر

حكاية شاعرة

أحست إليزابيث بيشوب، وهي في سريرها الصغير، بفكرة غريبة خطرت على بالها لم تعرف من أين جاءت ولا إلى أين ذهبت، فكتبت كلمة أو أكثر على مخدتها، على شرشف المخدة الأبيض، حتى غلبها النوم، وعندما استيقظت فجراً تذكرت تلك الكلمة، أو أكثر، فنظرت إلى شرشف مخدتها الأبيض، لعلها تجد ما كتبته البارحة، لكنها لم تجد شيئاً.

أين ذهبت الكلمات.. من أين جاءت وكيف غابت؟

تلكم كانت البداية قبل أن تحصل إليزابيث بيشوب، الشاعرة الأمريكية (١٩١١-١٩٧٩) على أول دفتر لتغمرها سعادة غريبة كأنها عثرت على كنز.. كأنها عثرت على الشعر، لتبدأ رحلة التيه من الشعر إلى المدن البعيدة، فالشعر يضيق بالمكان الثابت والزمان المتكرر، القصيدة رحلة إلى المجهول في مكان آخر وزمان آخر.. هكذا جاء عنوان مجموعتها الشعرية الثالثة (أسئلة السفر – ١٩٦٥) ليمثل تجربتها في السفر التي اتخذت شكل التيه، لكنها كتبت قصائد المجموعة التي نقشت فيها حياة التجوال ، بعد ترحال متكرر عبر أوروبا وشمال أفريقيا، لتستقر أخيراً في فلوريدا (كي ويست) لبضع سنوات تعرفت خلالها على الشاعر روبرت لويل الذي صار صديقها (الأدبي) المقرب وذا التأثير الهائل في مسيرتها الشعرية.

حظيت هذه الشاعرة، بعد سنوات الحيرة والترحال بمكانة رفيعة إذ عدها النقاد إحدى الشخصيات الشعرية الأمريكية اللامعة في القرن العشرين، لما عرف عنها ذلك التفاني في عملها على ما يمكن تسميته بـ (الحرفية المثالية)، وأطلقوا عليها صفة "كاتبة الكاتب"، ثم نيلها أرفع لقب في بلدها: (شاعر الولايات المتحدة الأمريكية).

بعد الحرب العالمية الثانية نشرت أولى مجموعاتها الشعرية بعنوان (شمال وجنوب – ١٩٤٦) التي استقبلت نقدياً بشكل جيد، غير أن بيشوب لم تزل تشعر بالغربة، الأمر الذي جعلها تقبل على تعاطي الكحول الذي لازمها كمشكلة غير قابلة للحل بقية حياتها.

ثمة اشتباك لا بد منه يخوضه الشعراء الحقيقيون بين منشودهم وواقعهم، لتصبح الخمرة، كما يتوهمون، حلاً من الحلول، لتلازمهم مرضاً على شكل إدمان.

التقت بيشوب، في البرازيل، المعماري الناجح والمهندس الذكي لوتا دي مارسيدو سواريز الذي وفر لها بيتاً شمال ريو دي جانيرو، فتحررت من أي أعباء مالية، وكانت من أكثر الفترات السعيدة، غزيرة الإنتاج، في حياتها "التي عنت لها كل شيء" حسب تعبيرها، لتعيد نشر ديوانها (شمال وجنوب) مع إضافات جديدة وضعت له عنوان (ربيع بارد)، لتحقق مزيداً من الانتشار والنجاح الذي تكلل بفوزها بجائزتي بوليتزر والكتاب الوطني، وفي عام ١٩٧٦ فازت بجائزة Neustadt international (جائزة نيوشتاد الدولية للآداب) لتصبح أول امرأة تفوز بهذه الجائزة، قبل أن تفارق الحياة بسبب نزيف بالمخ عام ١٩٧٩ ببوسطن.

رغم النجاح الذي حققته لم تزل تشعر بعدم الثقة بالنفس وبأن العالم بحاجة إلى مزيد من الجهد ليصبح مقبولاً، ولأنها لا تؤمن بأي فكر ديني أو سياسي، فقد نبع جوهر موقفها إزاء العالم من أعماقها الذاتية النقية، لتزداد معاناة بينما يزداد العالم من حولها قسوة، فتزيد جرعاتها من الكحول، لكنها تزيد قصيدتها حرفية وجمالية، وأسهم انغماسها في المناظر الطبيعية من حولها في منحها قوة نفسية وشعرية معاً.

تلك الفتاة التي لم تجد كلماتها على شرشف المخدة، ما زالت تثير الجدل، بين فترة وأخرى، بشأن سر عبقريتها وقوة شاعريتها حتى أن أحد النقاد كتب محللاً عالمها الإبداعي، في وقت لاحق، قائلاً: أعتقد أن بيشوب كانت تكتب وهي في لحظات عري روحي نادرة إلى الحد الذي حطمت فيه حتى النمط الإملائي للكتابة.

أيـــــامٌ في غـــربـــال مـــاء

كاظم الواسطي

لأرواحٍ نازعت مدَّ خرابٍ متصل
وقلوبٍ ضيّعت الحبَ ، ومسرّات القلب
بإدمانِ عصير الأوهام
أيامٌ تتبّددُ في مهبِّ الترّقبِ
تتعاقبُ بالانشطار
وتلتئمُ بالانتظار
ونحنُ، على حافّة المهّبِ ، نَلّمُ بقايا العمرِ
في غربال ماء.
القتلةُ، والنهّابونَ، واللصوص
الذين لا يخشون طلوعَ الشمس
وصيادو اللقمةَ من أفواه الجياع
تحت مآذن بيوت الله
ورجالُ الفرصةِ الأخيرة
النابحونَ على عظمةِ البلاد
وخاطفو الأملَ من عيون الصغار
على مرأى من ذلّ الآبــاء
كلهم،
وآخرونَ يطولُ بهم المقــال
يتكاثرون على سطح النفايات
دون خجلٍ من فضائح المزبلة.
قريباً من صفاء السريرةِ
بعيداً عن شفاه النميمةِ
يلتحفُ الموجوع القلبِ، بياضَ يديهِ
وينامُ على جوعهِ
لاعناً لوثةَ الطامعين بعد اللحم بالعظمِ.
بعينيّ صقرٍ متّربصٍ خلفَ جراحهِ
نكتشفُ سذاجةَ ما تخفّى
وراء الأمنيات
ومرارةَ المذاقِ في عسل الكلام.
في زحمة المتسابقينَ الحمقى
يتعالى اللهاث
ولا أحدَ يأملُ بيومٍ مختلفٍ
يصنعهُ العقلاء
وهم يدخلون فضاءَ الصراخِ
ببوصلةٍ عاطلة.
هنا ،
الكلُ ذاهلٌ بسواد المشهدِ
ومسّمرٌ
تحت ظلال الافتراس
حيث أصابعُ الاتهام
واغلةٌ بدمِ الضحيّة.
الأيامُ ذات اليوم الواحد
تتناسلُ برتابةٍ تشبهُ
آثارَ اليأسِ
على حـظٍ عـاثر
تأسنُ في شرنقةِ أرواحنا
تقضمُ أعواماً
في إيقاعٍ واااااااااحد .
في مكمنِ جرحٍ يتسّعُ، ويتسّع
بفارغ الصبرِ ننتظر
اصطفاقَ أجنحةٍ تُضيءُ ليلَ العتمةِ
في خـرائـبَ أدمـنـتِ المـوتَ..
وتغريب
الأحيـــــاء

أدباء دهـوك يحيون ثورة أيلول بأمسـية شعرية

عبد الخالق دوسكي/ دهوك

بمناسبة حلول ذكرى ثورة أيلول التي قام بها الشعب الكردي في العام ١٩٦١ قام اتحاد أدباء الكرد في دهوك بإحياء هذه المناسبة بأمسية شعرية، شارك فيها خمسة عشر شاعراً.

القاص حسن السليفاني رئيس اتحاد أدباء الكرد في دهوك أوضح في كلمة ألقاها في هذا الحفل: إن ثورة أيلول كانت الشرارة التي انطلقت منها بقية الثورات الكردية، وقال " كان للكتاب والمثقفين دور بارز في هذه الثورة من خلال مقالاتهم التي كتبوا عنها وألهبوا مشاعر الجماهير إضافة الى الكتاب الذين شاركوا بشكل فعلي في الثورة التي اندلعت في معظم المدن الكردية".

بحسب قول بشير المزوري السكرتير الثقافي لاتحاد أدباء دهوك الذي أضاف "كان لثورة أيلول تأثيرها على الحركة التحررية للشعب الكردي لذا فان اتحاد أدباء دهوك وجد انه من الضروري إحياء هذه الذكرى والتي كانت بمثابة نقطة تحول في حياة الشعب الكردي آنذاك لنيل الحرية والاستقلال".

وبين المزوري أن الحفل تضمن إلقاء قصائد من قبل شعراء قدموا من أجزاء كردستان ومن خارج الإقليم ايضا، والفقرة الثانية تضمنت توقيع عشرة كتب جديدة تم طبعها وإصدارها من اتحاد أدباء الكرد في دهوك بالتنسيق مع وزارة الثقافة والشباب في إقليم كردستان.

الكاتب خالد حسين الذي وقع ديوانه الشعري في هذا الحفل وأهداه للحضور، قال" لقد كان للأدباء والمثقفين دور كبير في الثورات الكردية فقد كانوا يمدون هذه الثورات بأفكارهم ومبادئهم ويسطرونها في قصائدهم وأشعارهم ورواياتهم وكانوا يحاولون إيصال أفكارهم الثورية إلى المواطنين عبر مقالاتهم الأدبية والفكرية التي نشروها في العقود الماضية".

وتابع حسين "أنا سعيد بان اتحاد أدباء دهوك قد طبع ديواني ضمن مشروع طبع الكتب وهذا المشروع اعتبره انجازا جيدا لاتحاد أدباء دهوك لأنه يساهم في إخراج المكنون الثقافي والفكري لدى الأدباء إلى المتلقي".

من جانبه أوضح سلام بالاي عضو الهيئة الإدارية لاتحاد أدباء الكرد في دهوك أنهم قد بدأوا بمشروع إصدار الكتب منذ سنوات إلى أن وصل عددها الى (٢٦٠) كتابا في مختلف المجالات الأدبية، وقال" نهدف من وراء هذا المشروع الى تحقيق غايتين: الأولى مساعدة الكتاب في طبع نتاجاتهم، والثانية إغناء المكتبة الكردية التي عانت طوال العقود المنصرمة الظلم والمحاربة والإهمال".

الشاعر فرهاد حاجي احد الشعراء الذين شاركوا في هذه الاحتفالية بإصدار ديوان شعري، قال " مشروع طبع نتاجات الأدباء والكتاب هو من المشاريع الثقافية الهامة التي ساهمت في إغناء المكتبة الكردية التي ما زالت تعاني الضعف حيث نفتقر إلى المصادر الثقافية وخاصة في دهوك التي تسود فيها اللهجة البادينانية"

وبخصوص أهمية حركة الترجمة للغة الكردية قال فرهاد " نحن بحاجة ماسة إلى تنشيط حركة الترجمة ولكن على الحكومة أن تتبنى هذا المشروع لأنه من المشاريع الكبيرة والتي لا غنى عنها وتساهم في تطوير الحركة الثقافية في المنطقة".